الفصل السادس
٦ - التسامح وإنصاف الآخرين

● إن العظمة النفسية للشخصية الإنسانية لا تظهر فى فراغ، ولا يمكن للأفراد أو الأمم أن تزدهر أقدارها وترتقى درجاتها ويعلو شأنها دون عقيدة صافية وإيمان قوى وبناء أخلاقى متين، وقد أعلى الإسلام شأن الأخلاق فجاء نبيه - عليه الصلاة والسلام - يتمم مكارم الأخلاق، ويمدحه رَبّهُ ويُثنى عليه؛ لأنه (ﷺ) على خلق عظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

- وتتبوأ الدعوة إلى مكارم الأخلاق والتخلق بأخلاق الله - تبارك وتعالى - وأدب نبيه الكريم ﷺ - غاية الدعوة والتربية والتوحيد والعبادة والشريعة، ويجنى صاحب الخلق الكرين ثمار مكارم الأخلاق فى الدنيا والآخرة، وتَجدُّ الأمم والأفراد بمكارم الأخلاق، والمنظومة القيمية والسلوكية الدافعة للسلام الاجتماعى والتراحم والتلاحم بين أفراد الأمة؛ لتحقيق التقدم والازدهار والحياة الطيبة والعيش الرغيد.

- وليس غريبًا أو لافتًا كثرة القيم والمبادئ الإسلامية الداعية إلى ترسيخ القيم الخلقية فضلاً عن آداب الأمة وشعوبها الإسلامية ونتاج أدبائها وحكمائها فى ميدان المنظومة القيمية البانية والهادية إلى عزّ الدنيا وسعادة الآخرة، ولهذا جاء التعبير بأسلوب القصر فى الحديث لتأكيد تلكم الحقيقة، فى قوله ﷺ: «الدين الخلق»، وقوله ﷺ: «الدين المعاملة»، وما أجمل قول الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله أمير الشعراء:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها فى خير عافية ... والنفس من شرها فى مرتع وَخِم

● وشيخنا السيد محسن أحمد باروم قد توفر له من مكارم الأخلاق وعراقة الأصل وشرف النسب وطيب المنبت ما يفسر لنا ثراء عطائه لوطنه وأمته ودينه، وكيف لا وقد نشأ وترعرع في جوار البيت الحرام في البلد الأمين أحب بلاد الله إلى الله تعالى وإلى رسول الله – ﷺ – فشملته بركة المكان، وأدَّبته عقيدة التوحيد الخالص وشريعة الإسلام السمحة وعبادته الميسرة المزكية للروح والجسد ومنظومته الأخلاقية الربانية المباركة.

– وكان ميلاده عام (١٣٤٧ هـ) مواكبًا لنهضة المملكة الفتية على يد مؤسسها وفارسها المقدام الملك عبد العزيز آل سعود – رحمه الله – ونشأ فتانا وترعرع مع الجيل الذى حمل الراية فى مرحلة البناء والانطلاق لتحقيق التقدم والرخاء والازدهار، فهو من الجيل الذى نحت فى الصخر وكدح وعرف وتجشم الصعاب وتحدى العقبات وزرع لتحصد أجيال الأبناء والأحفاد، وليفيض الخير يعمّ البوادى والحواضر وليشمل البلدان الإسلامية وغير الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها، وليحمل وطنه الغالى مشعل الهداية والدعوة الإسلامية ويحظى بشرف خدمة الإسلام والبيت الحرام ومسجد الرسول النبى العدنان سيد الأنام صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصَحْبِهْ الكرام.

– ولقد تخلق الرجل بخلق الإسلام العظيم من الصدق والأمانة والإخلاص والوفاء والتواضع والتسامح ومعرفة أقدار الناس وإنصافهم، ولقد استوعب قلبه الكبير البشر جميعًا، فلم يبخس أحد حقًا، ولم يمنعه اختلاف المعتقد وتباين الدين من إنصاف الآخرين من سائر الملل والنِّحل.

– ولقد عرضنا صوراً من تواضعه وصدقه وأمانته وإخلاصه، وبقى أن نقف أمام خلق التسامح والعدل مع المخالفين وإنزال الناس منازلهم ومعرفة أقدار الرجال والتسامح مع الآخرين، والرجل كما رأيناه استقربه الحال فى القاهرة، يطلب العلم فى الجامع الأزهر وكلية اللغة العربية، لم يمنعه ذلك من متابعة زخم الحركة الأدبية والعلمية المزدهر فى قاهرة أربعينيات القرن العشرين فى مختلف جامعاتها

ومنتدياتها الثقافية، يختلف إليها يقطف أزهار المعرفة ويجمع رحيق العلوم والفنون فى إقبال العاشق المتيم بالعلم والأدب الحريص على الانتفاع بوقت مُقامه فى القاهرة أيما انتفاع، كما عرضنا لذلك بقلمه فى مقالة سابقة.

– وحين قيامه بزيارته التفتيشية للظهران بداية سبعينيات القرن الرابع عشر الهجرى أوائل الخمسينيات الميلادية من القرن العشرين، يقوم أديبنا بزيارة حى كبار الموظفين فى شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو) وتبهره أضواء الحياة فيه كما بهرته أساليب التفكير والبحث وطرائق التدريس فى قسم البحث العربى الذى كان الدكتور جورج رنتز أحد المستشرقين الأمريكيين رئيسا له والذى كان متزوجا من سيدة مسيحية مصرية وهى السَّيدة صفية التى كانت المسئولة عن وحدة الصحف والمجلات العربية فى قسم الشرق الأدنى بمكتبة الكونجرس الأمريكى فى واشنطن.

– ويعبر أديبنا عن إعجابه بطرائق البحث التى كان الدكتور رانتز يسلكها فى إطار دراسة المنطقة التى أُنشئ من أجلها هذا القسم تاريخيًا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيًا وحضاريًا، ويعرض شيخنا لكتاب الدكتور رنتز (أرامكو المرجعىّ) (Aramco Hand Book) الذى ألفه الدكتور رنتز مع مجموعة من الباحثين الأمريكيين لإعطاء قارئه فكرة عن تاريخ الإسلام فى مختلف العصور حتى قيام الدولة السعودية فى شبه الجزيرة العربية.

– عرض أديبنا لفصول الكتاب بأسلوب موضُوعيّ دون التطرق إلى الهدف من هذا الاهتمام الأمريكى الشديد بالمنطقة وثقافتها وتاريخها باعتبارها منطقة مصالح حيوية للطموح الأمريكى والأوربى فى خيراتها، كما أشار كاتبنا الأديب بعد ذلك لما رآه من اختراق الثقافة الأمريكية للطبقة الشعبية من أبناء الشعب السعودى العاملين فى شركة (أرامكو) وافتتانهم الشديد بالثقافة الأمريكية وتحدثهم بلغة عربية ركيكة، هى خليط من العربية والانكليزية، وغضب لذلك غَيْرةً على دينه وحضارته وثقافته.

– لكن شيخنا أنصف الدكتور رنتز، وتردد على جلساته العلمية فى قسم البحث العربى بشركة (أرامكو) الذى لفته فى أساليبه البحثية غلبة الحوار والتعمق فى معرفة أسرار الحياة البدوية والحضرية، وأعجب بما كانت عليه الحياة فى حى كبار الموظفين وقسم البحث العربى أيما إعجاب، وقد لاحظ ذلك القائمون على الأمر فى (أرامكو) لطول تردده على جلسات البحث، فعرض عليه الدكتور رنتز ورفاقه عروضًا مغرية كأنْ يعمل فى الشركة عضوًا باحثًا فى طبقة كبار الموظفين بما تحمله تلك الوظيفة من مزايا مادية ومعنوية، وعروضا أخرى بالسفر إلى أمريكا للدرس والحصول على درجة الدكتوراه، وكاد أديبنا الشاب يُوافق وقدم استقالته بالفعل عندما عاد إلى مكة المكرمة لولا أنه (أراد عمرًا وأراد الله خارجة) أراد الله تعالى له أن يجنده فى خدمة لغة القرآن وآدابها والنهضة العلمية والتعليمية وبناء العقول والنفوس فى أرجاء المملكة المترامية الأطراف بخاصة، والمساهمة الفاعلة فى النهضة العربية والصحوة الإسلامية المعاصرة بعامة.

● وكما أنصف أديبنا المستشرق الدكتور جورج رنتز ومناهجه فى البحث وأُعجب بذلك متأثرًا – كما ذكر – بدّعاة الجديد والأخذ غير المتحفظ عن أوربا ونهضتها وثقافتها فى الجامعة المصرية آنذاك من أمثال لطفى السيد وطه حسين وغيرهما – وإن كان قد راجع نفسه فى ذلك وأعاد تقييم بضاعة أنصار التغريب فيما بعدُ – رأيناه فى أوربا مستشارًا ثقافيًا مقيمًا فى جنيف العاصمة الأوربية لهيئة الأمم، يدير المكتب الثقافى من شقة فى حى شامبل أمام شقة الدكتور عزمى نوار الذى كان رئيس قسم الرياضيات فى المدرسة الدولية بجنيف والذى يعترف له كاتبنا بالفضل لما قدم إلى المكتب الثقافى السعودى من خدمات جليلة وهو المسيحى المصرى!!.

* * *